خاطرة

الحرب تجارة بضاعتها النفوس

محمد نديم أنجم بيديا *

الحرب! الحرب! كلمة تستفز أنين الرعب الكامن في الأنفس، وقرقعة القيود الحديدية، ولسعات البارود الموجعة، وأصداء أضغاث أحلام متكسرة، وموسيقى الدماء القرمزية تضرج اخضرار المروج.

من بين ضجيج الرعب هذا، تهمس في آذاننا همسة خافتة عن مدى مشروعية ما تعتمد عليه السمفونية الحربية المتشوّهة الخلقة، وكيفية نسج التبرير لها من كفن جثث هامدة، طهرت ذيولها وصفت مشاربها.

تضمر نظرية "الحرب العادلة" في طياتها تناقضًا تمخض عن تصفيف القرارات السياسية الجدباء على رفوف الوقائع الوحشية التي يستعرضها تناثر الأشلاء في الساحات القتالية، مما يتمثل في عملية ترميم تصدع حضاري جسيم برشه بالعطور المزيفة. ومهما علت آماني الأمم وتطلعاتها فإنها تخفق في إلباس الحقيقة الجوهرية القناع الزائف، مما يؤذن بأن الحرب تطلق الحبل على الغارب لبهيمية وحشية تواقة إلى التقام الجنود والنسيج الحضاري بأسره في لقمة واحدة فحسب.

وتدور رحى هذا السيناريو البشيع على حيوات سواد الناس الذين لا يعدون كونهم مجرد بيادق وخسائر جانبية على رقعة لعبة شطرنج محسوبة.

* طالب السنة الثالثة من البكالوريوس، قسم اللغة العربية و آدابها، الجامعة العالية – كولكتا، الهند.

يصارع العالم حاليًا لاتخاذ مبادرة لحماية الأبرياء، تكون نبراسًا ولو باهتًا يحد من جيشان الهمجية بين تلاطم أمواج ملاحم حامية الوطيس.

إن الحفاظ على النسمة الإنسانية الآن كزراعة زهرة رقيقة القوام في بركان يكاد ينفجر وتنتشر ألسنة ناره في كل مكان؛ فالأمر ليس سهلًا أمام نفوس تواقة للقتل والدمار.

إن أشباح المبادئ التناسبية جثمت على الأنفس المتدنية قيمتها، مثلما يسير طيف على أجنحة الأثير تختنقه أدخنة المعارك وحرائقها، مما يذهب بالمثل الذي طبقت شهرته الآفاق "الغاية تبرر الوسيلة" أدراج الرياح دون جدوى. في حين تأخذ على عاتقها الوسائلُ تنفيذ إبادة منهجية إنسانية وتضمن إراقة أنهار من دماء الولدان والعذارى على السواء دون تمييز. وتتجسم هذه المعضلات في حسابات دموية بما يرافقها من الجيف البشرية التي غدت مجرد عملات قاتمة السواد تتداولها من وراءها أكف صلبة كالصوان وقلوب كالفولاذ وعقول تغشت بغيوم حاقدة كعاصفة كانون الهوجاء دون أدنى تردد أو تحسس بالإنسانية.

ربما لا يمكن تقييم مدى عدالة الحرب في الإعلانات السامية الرسمية، لكننا في حاجة ماسة وسريعة إلى البدائل السلمية، وتطبيق الأدوات الدبلوماسية التي تسبق إطلاق أول طلقة للحرب. وهل تكفل الحرب بأن الكارثة المدمرة ستضفي على وجوه الحضارات مسحة من المستقبل الأكثر إشراقًا، أم هي مجرد قمار يطوقه الهلاك من كل حدب وصوب حيث تستعر نيرانه بحطبات القومية التعصبية.

لا تتلاشى في الهواء ندوب الحرب ولا تضمحل جروحها اضمحلال الغبار في الجو بمجرد خمود أزيز المدافع و هدوء طنطنة المدرعات؛ فهي تمتد إلى أن

يرن في آذان ضحاياها رنين الرهبى، وعويل الجرحى، وأنين الثكلى، وصراخ رضيع يستحلب ثدي أمه القتيلة حتى تخلف وراءها عواقب وخيمة، مما ترتبت عليه مجتمعات متحطمة، واقتصادات منهارة، وأجيال تثقل كاهلها أعباء صدمة نفسية. ومن هذا المنطلق يستدعي الادعاء على أخلاقية الحرب التزامًا راسخًا بإعادة الإعمار وتعهدًا حاسمًا بمداواة القروح التي تسببت فيها داء الحرب وعناصرها.

ومن تحصيل حاصل أن يرتسم لنا مدلول كلمة "الحرب النبيلة" مشيًا على حبل مشدود، إذ لا نطيق تجسير المهاوي الأخلاقية التي بعثتها نكبات إنسانية تلدها الحرب فيما نتابع الحرص على تسويغ قاطع للنزاعات المسلحة. ولن يفوح أريج الظفر الحتمي من انتصار مؤقت قد يتحقق على قلب المعترك عكسَ ما علينا من أن نحفل به من السعي الدؤوب إلى الحلول السلمية ما لا بد لها من انطلاقها من نفوسنا باقتلاع الشر منها والغطرسة، وبزرع بذور الانفتاح الاعتقادي وحبوب الحوار المشترك مكانها ، توصلًا إلى حصد الانسجام العالمي المزركش بالأخوة الدولية، ومن ثمة إلى تدمير الأسلحة وتحويلها إلى آلات بناء وإعمار، حيث يسود التآلف الذي يوجّه القوى المتناحرة المتضاربة التي تكون حصيلتها العدم واللاجدوى فيما لو بقيت متعاكسة، وانتهاءً بعالم تتردد ألحان السلام فيه عالية على وجه المدافع المدوية.

..... ❖❖❖❖❖ .....